

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES
(معهد الدوحة)



www.dohainstitute.org

دراسة

العقد الأخير في تاريخ سورية: جدلية الجمود والإصلاح (2-5-5)

محمد جمال باروت

سلسلة (دراسات)

المحتوى

-
- 1 زخم الأحداث في دوما ودرعا: ولادة أول أشكال اللجان الشعبية
- 4 من "جمعة الصمود" إلى "جمعة التحدي": سياسة التنازلات القطاعية
- 7 زحف الأطراف نحو المركز: "تثوير دمشق" و"مجموعات حلب المتنقلة"
- 9 مذبحه بانياس وترويع البيضا: التأجيج الأهلي الطائفي
- 12 اضطرابات حمص والرستن
- 17 ثورة درعا: الشباب الراديكالي من الصياصنة إلى رزق الله أبازيد
- 20 خلاصة تركيبية

زخم الأحداث في دوما ودرعا: ولادة أول أشكال اللجان الشعبية

"جمعة الشهداء" (1):

فور إنهاء الرئيس بشار الأسد خطابه - وربما خلاله - خرجت تظاهرتان صغيرتان، إحداهما في حي "الصليبية" السنّي بمدينة اللاذقية؛ وشارك فيها ثلاثمئة متظاهر (2)؛ أمّا الأخرى فقد كانت بساحة الساعة القديمة بحمص، حيث بلغ عدد المشاركين فيها ألف متظاهر (3). بينما خرجت عدّة تظاهراتٍ في درعا، كان من أبرزها تظاهرة انطلقت بعد الخطاب مباشرةً، ورفعت شعاراتٍ حادّة تمسّ الرئيس وعائلته، وشعاراتٍ تنادي بـ"إسقاط النظام" (4). واقتصرت ردّة الفعل على الخطاب على هذه البؤر. وقدّر العدد الإجمالي للمتظاهرين فيها بنحو عشرة آلاف متظاهرٍ؛ لكن دلالتها السياسية، تمثّلت في مؤشّر التحول الجذريّ في الهتافات من الإصلاح والحرية، إلى إسقاط النظام.

وفي يوم الجمعة الذي أُطلق عليه اسم "جمعة الشهداء"، وربما كردّة فعلٍ على كلمة "الضحايا" في خطاب الرئيس، اتّسع نطاق الحركات الاحتجاجيّة (فيما عدا مدينة درعا) نسبياً - عمّا كان عليه قبل ذلك - في كلّ من مدن اللاذقية (5)، وجبلة، وحمص، وكفر نبل في محافظة إدلب، وحمّاة، والقامشلي التي شهدت مشاركةً كبيرةً للأكراد، ورفعت شعاراتٍ تركّز على وحدة الشعب السوري (6). غير أنّ انتشار هذه الحركات في مدينة دمشق، اقتصر على بورتين صغيرتين في جامع الرفاعي في كفر سوسة، وجامع الحسن في الميدان. أمّا في ريف دمشق، فقد انحصر في بورتين؛ هما: داريا وبرزة البلد، إضافةً إلى تظاهرةٍ كبيرةٍ في دوما. وكانت تظاهرة مدينة دوما، التي تُعدّ عاصمة الغوطة الشرقية، ومدينةً متوسّطةً من حيث حجمها السكاني، ومركزاً

¹ يستند هذا القسم بشكلٍ رئيسٍ إلى ورقةٍ خلفيّةٍ أعدها حمزة مصطفى، الباحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، عن المرحلة الثانية في تطور سيرورة الأحداث في سورية.

² تظاهر نحو (300) شاب في حي الصليبية (السنّي) في اللاذقية، كردّة فعلٍ على حديث "الفتنة الطائفية". وفي هذا الحي خرجت تظاهرات رافضة للخطاب وداعية إلى إسقاط النظام؛ وأدت المواجهات بين قوات الأمن والمتظاهرين إلى سقوط العديد من الشهداء. لمشاهدة ذلك اتبع الرابط التالي:

http://www.youtube.com/watch?v=ZznMYNBVE_c

³ ولمشاهدة تظاهرة حمص اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=LDaRs8GZ20>

⁴ هذه الشعارات هي سؤال "من يحكم سورية؟ بشار؟ أو من؟"، "الشعب يطالب بالجز على أمول عائلة الأسد ورامي مخلوف"، "اعتصام.. اعتصام بدنا نحاسب النظام"؛ وتمثّل الشعار الأبرز الذي رفع سقف الطرح السياسي في: "الشعب يريد إسقاط النظام". لمشاهدة هذه الشعارات اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=FyyGx2aIVjc> و خرجت في مساء اليوم نفسه، تظاهرة مسانئة أخرى بالشموع في درعا مؤلفة من نحو (7000) شخص، ترفع لأول مرة شعار "إسقاط النظام".

⁵ شهدت اللاذقية تظاهرة كبيرة رفعت شعارات نادى بالوحدة الوطنية "سنية علوية إسلام مسيحية"، و "الله سورية حرية وبس"، و "الشعب يريد إسقاط النظام". لمشاهدة الشعارات التي رفعها المتظاهرون في اللاذقية اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=Q0HV4Rm5W9k>

⁶ لمشاهدة تظاهرة القامشلي في جمعة الشهداء، اتبع الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=1Gqs9-0ZMp4&feature=player_embedded

حضرياً لما يحيط بها من المدن الصغيرة والبلدات والقرى⁽⁷⁾، فهي الأكبر حجماً والأشد قوةً، بسبب تعرّضها لإطلاق نار كثيف من قوّات الأمن، ممّا أدّى إلى سقوط أحد عشر قتيلًا وعشرات الجرحى، في صفوف المتظاهرين⁽⁸⁾. كان ثمانية من الشّهداء من أبناء دوما، وثلاثة من قرى عربيين وسقبا؛ وجرّت اعتقالات شملت عدداً كبيراً من وجوه الحركة، وشملت بعض قياديين حزب الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي، أكبر أحزاب التّجمّع الوطني الديمقراطي المعارض وقطبها الرئيس؛ وذلك بسبب دور الحزب ودور منظّمته الشبائية القوية في اندلاع التظاهرات في دوما على وجه الخصوص. فارتفع نتيجة وقوع الشهداء، زخم الحركة الاحتجاجية في شكل "تضامنية دوميّة" تشبه "التضامنية الدرعاوية" أو "الحوارانية"، إذ يتسم الدوميون - على غرار الحورانيين - بقوة تعاضدهم وتضامنهم في أوقات الشدائد⁽⁹⁾.

وفي اليوم التالي شجّعت دوما شهداءها في تظاهرة حاشدة، ندّعت إليها مدن الريف القريب (حريستا، سقبا، عربيين، عين ترما)، قدّر عدد المشاركين فيها بخمسين ألف متظاهر⁽¹⁰⁾. وأعلنت دوما يوم الأحد - بعد تشييع الشهداء - إضراباً عاماً على أرواح الشهداء، استمرّ حتى يوم الثلاثاء 5 نيسان/أبريل 2011. وكانت قد تشكّلت في دوما لجنة شعبية برئاسة الدكتور عدنان وهبة، وهو من وجهائها ومن الأقطاب الناصريين المعارضين كذلك، إضافةً إلى لجنة شبابية كان معظم أعضائها من كوادر منظمة الشباب الناصرية بدرعا⁽¹¹⁾.

أمّا درعا، فقد شكّلت المركز الأكثر كثافةً وشدّةً لوتيرة التظاهرات. ونظّمت هذه التظاهرات في مدن جاسم، والصنمين، وداعل، ونوى، وانخل - وتنتمي كلّها إلى فئة المدن الصغيرة التي يقلّ عدد سكّان الواحدة منها عن خمسين ألف نسمة⁽¹²⁾. ورفعت تظاهرة "درعا البلد" - التي تدفّق إليها المتظاهرون من المدن الأخرى

⁷ يبلغ عدد سكان مدينة دوما (133863) نسمة، وهي تشكّل المركز المتروبولي (الحضري) لمدينة وقرى الناحية الصغرى التي يبلغ عدد سكانها (219621) نسمة، كما أنها كبرى مدن محافظة ريف دمشق، للصيقة بمدينة دمشق.

⁸ اتبع الرابط التالي لمشاهدة إطلاق النار على تظاهرة دوما:

<http://www.youtube.com/watch?v=Q0HV4Rm5W9k>

⁹ رجاء الناصر (عضو المكتب السياسي لحزب الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي)، مقابلة شخصية، 12 نيسان/أبريل 2010.

ولمشاهدة مقاطع من تظاهرة دوما، اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=Q0HV4Rm5W9k>

¹⁰ لمشاهدة حشد الريف في تشييع الشهداء في دوما 3-4-2011 اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=g4OecRJobs&feature=related>

ure=related

¹² لمشاهدة بعض الحواجز العسكرية في مدينة انخل اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=FjcPhGOc5tc>

ولمشاهدة تظاهرة انخل بعد صلاة الجمعة في 1-4-2011 اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=YsUn0Hr27Ts>

- لافتةً قماشيةً كبيرةً، تحمل شعار "الشعب يريد إسقاط النظام" (13). ولم يمنع الجيش - الذي نصب الحواجز بين المدن - تدفق المتظاهرين من تلك المدن إلى مركز التظاهر في درعا البلد، فرغ المتظاهرون - متأثرين بشعارات "ميدان التحرير" في مصر - شعار "الشعب والجيش إيد واحدة"، إلى جانب شعار "الشعب يريد إسقاط النظام" (14). لكنّ الجيش فرّق المتدقّين إلى مدينة "الصنمين"، بعد كسرهم الحاجز بينها وبين "انخل"، بإطلاق الرصاص في الهواء للحيلولة دون "صبّ مزيدٍ من الزيت" على "نار" الاشتباكات، التي حصلت في تلك المدينة بين المتظاهرين وقوّات الأمن، وأدّت إلى وقوع العديد من الجرحى (15).

وفي المحصلة، سجّلت "جمعة الشهداء" في درعا ارتفاع وتيرة الاحتجاجات وشدّتها، ورفع السقف السياسي للشعارات السياسية بطرح شعار "إسقاط النظام". وأصبحت درعا البلد أشبه بـ"ميدان التحرير"، يتوجه إليها المتظاهرون من مختلف أحيائها ولا سيّما درعا المحطّة والقرى المحيطة بها (16). ويعود هذا التطور في احتجاجات درعا - من الشكل "العفوي" إلى الشكل الذي يتميز بنوعٍ من "التنظيم" - إلى تطوير الأشكال التنظيمية الثلاثة التي تكوّنت إبان اعتصام "الجامع العمري"، في نوعٍ من لجنة عمل ميدانية (17). وبذلك تكون حركات درعا ودوما وحدها هي التي أفرزت هذا النوع من اللجان الشعبية الميدانية، التي انحدر أعضاؤها من الفئات الوسطى، بينما هيمنت القيادات العُلمائية "المشيخية" التقليدية على الحركات الاحتجاجية في تظاهرات المدن الصغيرة والمتوسطة الأخرى، في حين كانت قيادة المجتمع الكردي السوري خاضعةً لأحزابه المنظمة. وعلى مستوى الحجم، قدّر العدد الإجمالي للمتظاهرين في "جمعة الشهداء" في المدن والبلد كافة، بمئة وخمسين ألف متظاهر، ضمّت درعا ودوما غالبيتهم، بحكم كثافة التظاهرات في هاتين المنطقتين.

¹³ في 1-4-2011 رفعت لأول مرة في درعا لافتة قماش كبيرة حملها المتظاهرون كتب عليها "الشعب يريد إسقاط النظام". لمشاهدة ذلك اتبع الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=MEK8MifgNfQ&feature=player_embedded

¹⁴ في الحاجز بين انخل وجاسم وبسبب عدم منع الجيش المتظاهرين من التوجه إلى جاسم، حصل بعد كسر الحاجز التحام مع الجيش فصعد العديد من المتظاهرين على مدرعاته ودباباته؛ يرفعون شعار "الجيش والشعب إيد واحدة" والشعب يريد إسقاط النظام. لمشاهدة ذلك اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=yh-ZoaGR8a4&NR=1>

¹⁵ يمكن تفسير سلوك الجيش بعدم التعرّض للمتظاهرين إلى عدة أسباب، أبرزها: أن القطع العسكرية الموجودة في درعا ومدنها، كانت مندمجة في السكان، مما حدا بالعديد من العسكريين إلى التعامل بطريقة مختلفة مع المتظاهرين، وبحسب إحدى الشهادات الميدانية التي حصل عليها باحثو المركز في هذا التاريخ، فإن حواجز الجيش كانت ترشد المتظاهرين إلى وجود الحواجز الأمنية لاتباع طرق مختلفة، وأكدت الشهادات، أن حواجز الجيش لم تكن تدقق في الهويات الشخصية، ممّا يعني أنه لم يكن لها قوائم بالمطلوبين، كما كانت تفعل الحواجز الأمنية الموجودة في محيط مدينة درعا.

¹⁶ لمشاهدة توجّه المتظاهرين إلى درعا البلد اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=Q0HV4Rm5W9k>

¹⁷ وهي (لجنة تنظيم الاعتصامات واستقبال الضيوف والمتضامنين؛ لجنة تأمين المون والطعام؛ ولجنة من أجل المساعدة الطبية)، وكانت قد ظهرت آثار هذه اللجان التنظيمية إبان اعتصامات الجامع العمري، لكن أكثرها وضوحاً ظهر في تظاهرات "جمعة الشهداء" ثم بشكلٍ أوضح في تظاهرات "جمعة الصمود". يستند هذا التوصيف إلى ورقةٍ خلفيّةٍ أعدها حمزة مصطفى. لمشاهدة جزء من التنظيم الشعبي لاعتصام الجامع العمري اتبع الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=iPBYM7THOD4&feature=player_embedded

من "جمعة الصمود" إلى "جمعة التحدي": سياسة التنازلات القطاعية

شهدت "جمعة الصمود" في 8 نيسان/أبريل 2011 تطوراً بارزاً من ناحية ارتفاع حجم المشاركة في الاحتجاجات من جهة، ومن ناحية الردّ العنيف من قبل "قناصة" منتشرين على سطوح بعض المباني والمؤسسات الحكومية، حيث انطلقت تظاهرات كبيرة في درعا البلد، والمحطة، وانخل، وجاسم والحارة، والحراك، وكفر شمس⁽¹⁸⁾، مما أسفر عن سقوط (20) قتيلاً⁽¹⁹⁾، إضافةً إلى عشرات الجرحى الذين نُقلوا إلى المشفى الوطني بدرعا⁽²⁰⁾. واتّهمت السلطة "المندسين" بارتكاب الجريمة⁽²¹⁾، بينما اتّهم المتظاهرون "الشبيحة" و"رجال الأمن" بارتكابها، كما حملّ نائب درعا في مجلس الشعب الأجهزة الأمنية المسؤولية عن الجريمة⁽²²⁾، وتسبّب تشكّك رئيسة تحرير جريدة "تشرين" الرسمية، في هوية القناصة الذين يطلقون النار على المتظاهرين في درعا، ومطالبتها بالتحقيق في شأن هويّتهم الحقيقية، في إقالتها مباشرةً من منصبها⁽²³⁾. وخلال التظاهرة التي انطلقت في درعا المدينة من ثلاثة مساجد، تجمّع قسمٌ من المتظاهرين أمام القصر العدلي، وكانت غالبيتهم من عائلات "المسالمة" و"الراضي" و"أبا زيد"⁽²⁴⁾، وهي العائلات التي انتمى إليها معظم من استشهدوا في اليوم الأوّل من الأحداث، برصاص القنّلة من "ركاب الدراجات".

أمّا في حمص التي كانت تعيش على وقع تظاهراتٍ يوميةٍ محدودةٍ، فقد ارتفعت وتيرة التظاهرات واشتدّت نسبياً، إذ وقع فيها قتلٌ واحد، كما أحرق أحد المقرّات الحكومية⁽²⁵⁾؛ ونادى المتظاهرون بإسقاط المحافظ

¹⁸ جانب من تظاهرات جاسم في جمعة الصمود

<http://www.youtube.com/watch?v=UJRemtDSfPg>

¹⁹ البيان الإماراتية "جمعة الصمود تعم مدن سوريا في احتجاجاتٍ واسعةٍ" 9-3-2011.

<http://www.albayan.ae/one-world/arabs/2011-04-09-1.1417484>

²⁰ نقل الشهداء والجرحى إلى المشفى الوطني اتبع الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=GkBoFFppls&feature=player_embedded

²¹ بيان وزارة الداخلية على وكالة الأنباء السورية سانا 9-4-2011.

<http://www.sana.sy/ara/2/2011/04/09/340790.htm>

²² حملّ النائب عن درعا ناصر الحريري قوّات الأمن مسؤولية إطلاق النار على المتظاهرين معتبراً ذلك "وصمة عار" في جبين من أعطى الأوامر بإطلاق النار، طالباً من الرئيس الأسد تحمّل مسؤوليته في وقف "حمّام الدم". قارن مع "بي بي سي"، "نائب سوري يحمل أجهزة الأمن مسؤولية قتل المحتجّين في درعا" 10-4-2011.

http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2011/04/110409_syria_deraa_shooting_parliament.shtml

²³ تسببت إشارة سميعة المسالمة - وهي من درعا، ووقع عدد من أقربائها بين الضحايا - إلى ضرورة التحقيق في هوية الطرف الثالث، وسؤال الأجهزة عن تقصيرها في هذا المجال، في تعليق لها في قناة الجزيرة في إقالتها (قناة الجزيرة وكالات، 10 نيسان/أبريل 2011).

²⁴ هذه العائلات ستشكّل الرافد للشباب الراديكالي الذي يرفض الحوار مع الدولة، ويقوم بعملية تسلّح بدائيةٍ بعد انسحاب الأمن من درعا.

²⁵ جانب من استهداف المتظاهرين في حمص في جمعة الصمود.

https://www.youtube.com/watch?v=pDkOrT9Is8o&feature=player_embedded

فُعزل على الفور. وامتدت التظاهرات إلى مدن بانياس واللاذقية وجبلة وطرطوس الساحلية التي خرجت لأول مرة في التظاهرات ثم غابت عن المشهد الاحتجاجي، ورفعت شعارات "الشعب السوري ما بينذل" و"بالروح بالدم نفديك يا درعا" (26). لكن ما شكّل نقطة تحوّل كبيرة في الحركة الاحتجاجية، هو تظاهرة دير الزور في شمال شرق سورية، والتي تعدّ مدينةً متوسطة الحجم سكانياً، إذ يبلغ عدد سكانها 253504 نسمة. وفي هذه المدينة، اجتمع ما يقارب الثلاثة آلاف شخص من مساجد مختلفة، أمام مسجد عثمان بن عفان. ورفعت هذه التظاهرة شعارات متأخّرة، تعود إلى المراحل الأولى من الحركة الاحتجاجية "الله سورية حرية وبس" (27).

وأبرز انخراط دير الزور في حركة الاحتجاجات؛ دخول لاعبي اجتماعي جديد على خطّ التظاهرات، هو اللاعب العشائري، الذي مثله شباب ينتمون إلى عشائر "البقارة" و"العقيدات"، حيث انخرط بعض رؤسائها من آل البشير المنتسبين إلى "البقارة"، والدندل المنتسبين إلى "العقيدات" في حركة "إعلان دمشق"، وشكّل هؤلاء محور القطب العشائري فيه؛ وسيبرز التطور السياسي للأحداث، هذا الدور على نحو أكثر وضوحاً (28). وقد برز دور جماعة البشير في اندلاع حركة الاحتجاجات هذه في دير الزور (29). ويعدّ "البشير" في الحقيقة رئيساً وراثياً لفخذ البوعرب من عشيرة البقارة، لكن هذا الفخذ متحالف تاريخياً مع فرقة العابد التي تضمّ عدة أفخاذ، ويتم توارث رئاسة البقارة في إطارها. وقد تميّز شيوخهم بدورهم السياسي النشط في الحياة البرلمانية، وتمثّل دير الزور في تاريخ البرلمانات السورية (30).

قدّمت السلطة حتى "جمعة الصمود" في منتصف نيسان/أبريل 2011 تنازلاتٍ سياسيةً قطاعيةً كبيرةً، بمقاييس نمط تفكيرها السياسي السابق، تنطوي على جرعة إصلاحية كبيرة، إذ أفضت "سياسة الشوارع" إلى تقديم تنازلاتٍ فوريةٍ للأطراف كافة، أو الوعد بها، لكن من دون المسّ بجوهر النظام الدستوري القائم على قيادة البعث للدولة والمجتمع، والتفريق - وليس الفصل - بين السلطات الثلاث، لكنها تتدرج في إطار

²⁶ شهدت طرطوس تظاهرة واحدة في جمعة الصمود، ثم غابت نهائياً عن مشهد الاحتجاجات، ويفسر البعض ذلك بعدم وجود سوابق عنف بين الأهليين، بل يمكن القول إن الصلات الاجتماعية طيبة عموماً (بما في ذلك كثرة المصاهرة) كما أن مناخ المدينة النفسي الاجتماعي غير مواتٍ لشدّ عصبيات تقسمها. http://www.youtube.com/watch?v=K4_2tLpO74o

²⁷ لمشاهدة تظاهرة دير الزور التبع الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=xLrDfGqSlmU&feature=player_embedded

²⁸ من اللاعبين العشائريين الشيخ عبد الإله بن تامر الملحم (الاحسنة)، والشيخ الشعلان (رولة)، والشيخ عبد الحميد المصرب، حفيد مجول المصرب والشيخ نواف البشير شيخ عشيرة البقارة، والذي تحول من عضو مجلس شعب خلال دورة 1990-1994 إلى أحد أقطاب إعلان دمشق، وعضو اللجنة الإدارية التحضيرية لمؤتمر الإنقاذ الوطني، واتسم بنشاطه الميداني في دير الزور، وكان على رأس بعض تظاهراتها، إضافة إلى الشيخ أمير الدندل أحد شيوخ العقيدات.

²⁹ رجاء الناصر، مقابلة شخصية، 20 نيسان/أبريل 2011؛ أحمد حافظ، محادثة، دير الزور، تموز/يوليو 2011.

³⁰ أحمد وصفي زكريا، عشائر الشام، ج2، ط10، (دمشق: دار الفكر المعاصر، ودار الفكر، دمشق-بيروت، 2009)، ص566.

جرعة جزئية من الإصلاحات⁽³¹⁾، كان من المفترض أن تنجز برمتها خلال العشرة الماضية، في إطار تصوّر مرحلة انتقالية تفضي إلى تجديد الحياة السياسية، وخلق فضاء عام يسهّل عملية التحوّل الديمقراطي. وكان من أهم نتائج هذه الاستراتيجية، محاولة لأمّ جروح الهوية الوطنية السورية، بحلّ مشكلة تجنيس "أجانب الحسكة" في إطار تحييد الأكراد عن حركة الاحتجاجات⁽³²⁾، وفتح حوار غير رسمي مع قيادة حزب الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي، الذي يشكّل القوام الأساسي لـ "التجمع الوطني الديمقراطي" المعارض⁽³³⁾، وإسباغ الشرعية على حركة الاحتجاجات⁽³⁴⁾. وما كان ممكناً لهذه "التنازلات" أن تحدث لولا حركة الاحتجاجات.

وبحلول 19 نيسان/أبريل، قرّرت الحكومة رفع حالة الطوارئ، وإلغاء محكمة الدولة الاستثنائية، وتنظيم التظاهر، مترافقاً مع وجهة النظر الرسمية في وصف ما يجري في بعض المدن، ولاسيما حمص وبانياس، بالعمليات التخريبية، التي تقوم بها جماعات "سلفية". لكن رفع حالة الطوارئ ظلّ صورياً ولم يعمل به قط.

³¹ أُقيل محافظا درعا وحمص، وأحيل محافظ درعا ورئيس فرع الأمن السياسي فيها إلى القضاء، وشكّلت لجنة للتحقيق في الأحداث. وأعلن الوعد مع الشروع في ثلاث مجموعات إصلاحية هي: إلغاء حالة قانون الطوارئ، ووضع مشروع قانون لمكافحة الإرهاب بدلاً منه؛ والإعداد لقوانين الأحزاب والإعلام، والتجمع؛ وتشكيل معهد شرعي، وإعادة مئات من المعلمات المنقبات المنقولات من التعليم إلى وظائف أخرى إلى العمل في التعليم؛ وإغلاق كازينو دمشق. وجرى الحوار أكثر من مرة مع القيادات الاجتماعية في درعا وبانياس، كما جرى استقبال ذوي الشهداء، وتشكيل لجان تحقيق في الأحداث؛ كان أسرعها لجنة بانياس.

³² استقبل الرئيس الأسد في 6 نيسان/أبريل عام 2011 وفداً من وجهاء الحسكة ضم 35 شخصية، منهم (14 كروياً، ووعد الرئيس خلال الاجتماع بجعل عيد "النيروز" عيداً وطنياً، وبمعالجة قضية إحصاء العام 1962 والمرسوم 49 المتعلق ببيع العقارات و شرائها في المناطق الحدودية. وذكرت وكالة إرنا في 4-6-2011: "الرئيس الأسد يستقبل وجهاء الحسكة ويعد بالنيروز عيداً وطنياً". وفي اليوم التالي (7 نيسان/أبريل) أصدر الرئيس الأسد مرسوماً بمنح الجنسية لأكراد الحسكة المسجلين أجنبياً في السجلات المدنية. وذكرت محطة فرنسا 24 في 7-6-2011: "الأسد يصدر مرسوماً بتجنيس الأكراد في شمال شرق البلاد". <http://www.france24.com/ar/20110407-assad-gives-kurds-citizenship-syria-daraa>

ومع ذلك، خرجت تظاهرات في مناطق تتسم بتركز كردي كالقامشلي و عامودا في جمعة الصمود 8 نيسان/أبريل 2011 ورفعت شعارات تضمنت مطالبهم مع مطالب الشعب السوري إضافة إلى النصر لدرعا. (لمشاهدة تظاهرة القامشلي في جمعة الصمود بتاريخ 8-4-2011 اتبع الرابط التالي):

<http://www.youtube.com/watch?v=5Zw6Sb9mtT4>. لكن هذه التظاهرات كانت رمزية في حقيقتها، بالنسبة إلى الحجم التظاهري المحتمل أو الكامن، وكاستيعاب لنزعات الشباب في التضامن مع درعا، وظلت مضبوطة سياسياً من ألفها إلى يائها، فلم تتحوّل قط إلى اضطرابات أو فوضى.

³³ كان هناك قنوات حوار مع قيادات الأحزاب الكردية، وكذلك اتصالات مع قيادة حزب الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي العربي الذي يمثل أكبر أحزاب المعارضة وأقواها في القدرة على التحرك في بعض المناطق ولاسيما ريف دمشق ومركزه الدوماني (نسبة إلى دوما). وقد كشف رجاء الناصر عن الاتجاه العام لهذا الحوار غير الرسمي، في مقال له - شبه رسمي - نشر في "المنبر الديمقراطي الوطني"، تحت عنوان "دلالات يوم الغضب وطريق الخلاص" (1 أيار/مايو 2011)، أشار فيه إلى أن الحلّ الأمني "أضعفت أيضاً مصداقية محاولات التواصل الجانبية، التي أقدمت عليها أطراف في السلطة مع بعض قادة المعارضة، والتي أوحت من خلالها بوجود انشقاقات في السلطة، وأن هناك جناحين فيها، الأول: متشدّد أمني، يتمثل في الأجهزة الأمنية والحزبية، والثاني: سياسي عقلاني، يتمثل في الرئاسة والقيادة العسكرية".

³⁴ حدث تطور آخر بمناسبة تظاهرات 15 نيسان/أبريل 2011 هو وصف التظاهرات، في أخباريات التلفزيون السوري، بالدعوة إلى "الإصلاح والحرية"، ثم تصريح مصدر مسؤول بعدها بحرية التظاهر شرط عدم عسكرته. وفي 16 نيسان/أبريل اعتبر الرئيس في كلمته أمام الحكومة الجديدة كافة الضحايا شهداء، وطلب من الحكومة أن تعدّ مشروعاً لمكافحة الفساد الكبير والصغير، وجعل التظاهر حقاً يكفله الدستور، وإنجاز مشروع رفع حالة الأحكام العرفية خلال أسبوع، وإفصاح الوزراء عن ممتلكاتهم قبل تولي الوزارة. وميّز بين الطابع الموضوعي للحركات والتظاهرات الاحتجاجية "المشروعة" وعمليات العنف و"تأمر المسلّحين" المدسوسين.

زحف الأطراف نحو المركز: "تثوير دمشق" و"مجموعات حلب المتنقلة"

انتشرت خلال الفترة الواقعة بين "جمعة الشهداء" (1 نيسان/أبريل)، و"الجمعة العظيمة" (22 نيسان/أبريل)، الحركات الاحتجاجية في أطراف دمشق الكبرى، المؤلفة من مدينة دمشق والمدن الصغيرة والمتوسطة التي تعدّ جزءاً إدارياً من محافظة ريف دمشق، وتعدّ من الناحيتين: الاقتصادية والبشرية، جزءاً لا يتجزأ من مدينة دمشق. لذلك لا بدّ من التفكير في مصطلح جديد لفهم هذه الأحداث، هو مصطلح "دمشق الكبرى". كانت هذه المدن الصغيرة من طراز حرستا 107217 نسمة، وعربين 54243 نسمة ومجموع ناحيتها 108157 نسمة، وجوبر جوبر الغربي 19871 نسمة، وجوبر الشرقي 47366 نسمة وسقبا، وكفر بطنا 27203 نسمة، برزة البلد 35320 نسمة، المعضية 63633 نسمة، وداريا 95077 نسمة، وزملكا 53914 نسمة. وقد انعكست سياسات التحرير الاقتصادي على معظم هذه المدن بآثار وخيمة. وتُعد دوما- وهي أكبرها- مدينةً متوسطةً من حيث عدد السكان؛ البالغ 133863 نسمة، وتمثّل مركزاً حضرياً لمحيطها من المدن والبلدات الصغيرة.

وبرزت في سيرورة الأحداث، محاولة قادة حركة الاحتجاجات في هذه المدن، تصديرها إلى مدينة دمشق لتثويرها على نحو قريبٍ من زحف الأطراف إلى المركز، مستدعين مشهداً هو مزيج من المشهد التونسي (زحف الأحياء الهامشية في تونس العاصمة إلى قلب المدينة) والمشهد المصري (ميدان التحرير). وقد أربك ذلك السلطات، التي استنفرت قواها، ووضعت سلسلةً مركبةً من الحواجز الأمنية، في مفاصل اتصال ساحة العباسيين في دمشق بالمدن القريبة على محوري "جوبر/زملكا/عربين" و"الزبلطاني/سقبا/عين ترما". ووفقاً لسيرورة الأحداث، توجّهت تظاهرات "دوما" في يوم الجمعة العظيمة، إلى حرستا في طريقها لنقل الاعتصام إلى ساحة العباسيين، وقبيل ذلك ترجم التصاق شباب عربين وزملكا⁽³⁵⁾ وسقبا مع متظاهري جوبر وكفر بطنا؛ للسير في اتجاه ساحة العباسيين؛ في تظاهرة شارك فيها أكثر من عشرة آلاف متظاهر عبر محور الزبلطاني. واستخدمت قوى الأمن الهراوات والغاز المسيل للدموع، لمنعهم من الوصول إلى الساحة⁽³⁶⁾. ولكن مع لحظة اقتراب المتظاهرين من "كراج الزبلطاني" القريب من ساحة العباسيين، بدأت

³⁵ لمشاهدة تجمع التظاهرات في عربين وزملكا اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=jv7i707r39Y>

³⁶ - الجزيرة نت: تظاهرات في سورية تدعو لإسقاط النظام، 16-4-2011، <http://www.aljazeera.net/NR/EXERES/EAE63617->

DD28-41CF-A39F-B2ED316377D1

قوات الأمن في إطلاق النار عشوائياً وبشكل مباشر لتفريق التظاهرة⁽³⁷⁾. وقد أسفر إطلاق النار في ذلك اليوم عن سقوط عدد كبير من الشهداء، قدر بـ 112 شهيداً، منهم 48 شهيداً سقطوا في ريف دمشق⁽³⁸⁾.

لم تنجح محاولة الوصول إلى "ساحة العباسيين"، لكنها ستؤثر تأثيراً كبيراً -بعد ذلك بقليل- في انخراط أحياء دمشق الطرفية والهامشية؛ مثل القدم والقابون وأطراف ركن الدين إضافةً إلى حيّ الميدان الشعبي؛ في حركة الاحتجاجات. وقد بدت الصورة مجسّمة، وكأن حزام دمشق الكبرى الطرفي يضغط على مركزها، ويطوقه بحركات الاحتجاج؛ في حين اتّسمت التحركات داخل المدينة بالبور المحدودة، مثل تحركات بعض طلاب كليتي الحقوق في جامعة دمشق، التي قوبلت بمجموعات طلابية مضادة، قبل تفريقها⁽³⁹⁾، وتظاهرة الـ "200" في شارع الحمراء في دمشق⁽⁴⁰⁾، وقابل ذلك في حلب محاولة بعض طلاب جامعتها استتارة الشباب في بورتين⁽⁴¹⁾، وإحياء ذكرى عيد الجلاء⁽⁴²⁾، ومحاولة الأطباء خلق بؤرة تظاهر⁽⁴³⁾، بينما أخفقت محاولات "تثوير" المساجد والأحياء برمّتها.

³⁷ لمشاهدة إطلاق النار على المتظاهرين في الزبلطاني في الجمعة العظيمة اتبع الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=wSjpOqdPsc0&feature=player_embedded

³⁸ سقط في الجمعة العظيمة (112) شهيداً وفق الترتيب التالي " 48 شهيداً في دمشق وريفها، 27 شهيداً في حمص، 31 شهيداً في درعا منهم 30 في إزرع، وشهيد طفل في الحراك، و5 شهداء في حماة، وشهيد في اللاذقية. للاطلاع على أسمائهم التي تداولتها المواقع عن نشرة للمنظمات الحقوقية اتبع الرابط التالي:

https://www.facebook.com/note.php?note_id=194012817309074

³⁹ شهدت جامعة دمشق أولى تجمعات طلابية معارضة في كلية الحقوق والآداب في دمشق، إضافةً إلى تظاهرة كلية العلوم في منطقة البرامكة، حيث تجمّع مئات الطلبة رافعين شعارات للحرية ولدرعا. لمشاهدة تظاهرة كلية العلوم بتاريخ 11-4-2011 اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=8qIlg6lbtvE4>

⁴⁰ شارك فيها ما يقارب 200 شخص طالبوا بالحريّة. وما ميز هذه التظاهرة أنّ قوات الشرطة وحفظ النظام أنتجت طوقاً حولها دون أيّ مصادمات أو اعتقالات. لمشاهدة تظاهرة شارع الحمراء في دمشق بتاريخ 11-4-2011 اتبع الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=q--5IFNSGas&feature=player_embedded

⁴¹ جرت خلال شهر نيسان/أبريل محاولتان شبابيتان في جامعة حلب، الأولى حدثت ظهر يوم 13 نيسان/أبريل 2011 وبدأت بعشرات الطلاب رفعوا شعارات "سلمية" و"حرية" و"بالروح بالدم نفديك يا درعا"، وضمّت المجموعة طلاب كلية الآداب مع طابيين من كلية العلوم، وسرعان ما ارتفع عددها نسبياً، لكن تصدّى لها الطلاب الموالون، فتطور تصدّيها إلى (500) متظاهر، وتمّ تحويل مجرى الهتافات إلى "الله، سورية، بشار وبس"، وسط اشتباكات بالأيدي. واستمر ذلك كله نحو نصف ساعة، أوقف فيها (20) طالباً لكن الأجهزة الأمنية أفرجت عنهم فوراً نزولاً عند تدخل عمادة الكلية، واستقبلوا من قبل العمادة ورئيس الجامعة لتلبية طلباتهم، ودعوتهم لعرضها دوماً دون "حاجز أو بواب". وبهذا الشكل تمّ احتواء الحركة (محادثة أجراها الباحث في 14 نيسان/أبريل 2011 مع الدكتور سعد الدين كليب رئيس قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة حلب). أمّا البؤرة الجامعية الثانية فتمثلت يوم الخميس 21/4/2011 حين حاول بعض شبان كلية الطب البشري التظاهر، وتظاهروا فترة لكن قوات الأمن فرقتهم، واعتقلت ما يقارب (25-30) طالباً منهم. (مقابلات أجراها الباحث في حلب مع بعض طلاب الكلية والنشطاء في 22 نيسان/أبريل 2011).

⁴² نظّم التجمع الوطني الديمقراطي هذا التجمع في مقبرة هنانو، في إطار تفاهم بينه وبين السلطات المحلية على ضبط التظاهرة في المكان، وعدم تحويلها إلى أمكنة أخرى. وألقيت في التجمع كلمات راديكالية، تنادي ببرنامج سياسي ديمقراطي متكامل للحريات هو برنامج التجمع، وإلغاء المادة الثامنة.. إلخ، ولدى محاولة البعض التوجّه إلى ساحة سعد الله الجابري تصدّى لهم الموالون، فحالت قوات الأمن بينهم وبين المتجمهرين، وأخرجتهم من الباب الخلفي دون اعتقالات (مقابلات شخصية أجراها الباحث مع عدة مشاركين في التجمع في 18-19 نيسان/أبريل 2011).

⁴³ وقعت هذه التظاهرة في الساعة الخامسة في 26 نيسان/أبريل 2011 أمام مبنى نقابة الأطباء بحلب، لكن تصدّى لها الموالون بإغراقها بشعارات مولية للرئيس بشار الأسد، بينما حال الأمن والشرطة دون انقراض الشبيحة على الأطباء.

مذبحة بانياس وترويع البيضا: التأجيج الأهلي الطائفي

بعد انقضاء جمعة الصمود وما سقط فيها من قتلى، بدأت أدبيات هذه المرحلة تأخذ طابعاً مصبوغاً بشعاراتٍ وخطبٍ دينيةٍ، تبارك التضحيات وتستعد للشهادة، ويلبس فيها بعض المتظاهرين الأكفان، بما يشكّل - تحليلياً - ملامح رمزيةً لتكوّن بيئةً أوليّةً قابلةً - في ظلّ شروطٍ معيّنةٍ - للتجبيش والتعبئة "جهادياً". وقد سجّلت ظاهرة ارتداء الأكفان - طيلة فترة الأحداث - في منطقتين على الأقلّ، هما: "الصنمين" في محافظة درعا، و"بانياس" في محافظة طرطوس. وكان ذلك واضحاً في مدينة بانياس، على الساحل السوري. وبالنظر إلى المشهية الدرامية لما حدث في هذه المدينة، فإننا سنركّز على بعض سماتها.

يبلغ عدد سكان مدينة بانياس 46597 نسمةً، وبلغ العدد مع سكان قرية البيضا 53068 نسمةً. أمّا بنيتها الاجتماعية، وبسبب ديناميات الحراك الاجتماعي والمهني والجغرافي والثقافي المركبة الناتجة من عملية التحديث، فتتألف من هويّة مذهبيةٍ ودينيةٍ متعدّدةٍ (يقدر عدد السنتّة بنحو 60% من سكانها، والباقي من المسلمين العلويين والمسيحيين الأرثوذكس والموارنة). وتشارك بانياس مع سائر المدن الصغيرة والمتوسطة في عوامل الاحتجاج، غير أنّ القابليّة للاحتجاج هنا، كانت كبيرةً ومتوتّرةً بسبب عوامل عدة. فقد تضافر عدم تكيف الفئات التقليدية السنيّة في المجتمع البانياسي مع نظام التعليم المختلط في مدارس بانياس، و صرف المنقبات من سلك التعليم، وعدم وجود مدارس للعلوم الشرعية، مع تضرّر الصيادين الذين يشكّلون إحدى أهمّ شرائح المجتمع المحليّ البانياسي؛ من منافسة السمك التركي لهم بفعل سياسات التحرير، كما تضاعفت وطأة الشكوى من ممارسات إدارة مرفأ بانياس التعسّفية معهم، ومحدوديّة توظيفهم وتشغيلهم في الدوائر الحكومية والمنشآت الاقتصادية (المصفاة - المحطة الحرارية... إلخ). وذلك منذ حوادث الثمانينيات إلى الآن. ويبدو أنّ هذه الشكوى تفاقمت، على خلفية الارتفاع الهائل لمعدّلات البطالة في المدينة في السنوات الأخيرة.

إثر قيام مجهولين في سياراتٍ تحمل "نمراً" غير سورية بإطلاق النار على مسجد الرحمن ببانياس، فجر يوم 9 نيسان/أبريل 2011⁽⁴⁴⁾، حيث خرجت في اليوم نفسه تظاهرة غاضبة، لبس فيها أعداد من المتظاهرين أكفانهم، في دلالة رمزيةٍ على استعدادهم للشهادة التي حرص خطيب الساحة على جعلها الغاية

⁴⁴ محادثة مع حسني العظمة في 12 نيسان/أبريل 2011

لنيل الحرية. وفي⁽⁴⁵⁾ مساء اليوم نفسه، سيطرت مجموعة مسلحة على المدينة، ودعت إلى الجهاد، واستقرت الأحياء ذات الغالبية العلوية والمسيحية بشعاراتٍ طائفية، وعادت إلى مكانها⁽⁴⁶⁾.

في ذات المساء من ذات اليوم، تعرّضت حافلة مبيتٍ عسكرية للهجوم على طريق بانياس، واستشهد عددٌ من ركبائها.⁽⁴⁷⁾ أمّا في اليوم الثاني، فقد انتشرت الدبابات في محيط بانياس⁽⁴⁸⁾. في منتصف نيسان/أبريل 2011، نشرت السلطة بياناتٍ متعدّدة عن حدوث مواجهاتٍ عسكرية بين مسلّحين "مجهولين" وقوى الأمن؛ في أكثر من نقطةٍ في درعا والصنمين، ونشرت السلطات قوائم بأسماء الشهداء، وكان في عدادهم ضباطٌ وعسكريون من عدّة محافظات ومذاهب، بما في ذلك المذهب العلوي؛ وقد جرى تشييعهم بالفعل⁽⁴⁹⁾. أمّا في بانياس، فقد اعتقلت الأجهزة الأمنية المئات، وتظاهرت النساء للإفراج عن رجالهنّ⁽⁵⁰⁾، وانطلقت في -15 نيسان/أبريل، في مدينة جبلة الساحلية- تظاهرة تضامنية ضخمة مع بانياس، رفعت شعاراتٍ سياسية "الله سوريا حرة وبس" وأخرى "إيمانية" "علجنا رايحين شهداء بالملايين". وكان هذا الشعار الأخير - الذي سيحوّل لاحقاً إلى شعارٍ سائدٍ في العديد من تظاهرات المدن الأخرى- يعبر عن حدّة المواجهة التي باتت تتخذ تعابير صدامية إلى النهاية، وتشتمل على تصوير المواجهة مع الأجهزة كنوعٍ من الجهاد⁽⁵¹⁾. لقد زجت المدينة في التوتّر الطائفي البغيض، وحلّت محلّ الصورة السابقة التي كانت فيه مفرزة أمن الدولة

⁴⁵ لمشاهدة تظاهرة بانياس والخطابات يوم السبت 2011-4-9

<http://www.youtube.com/watch?v=NsfreKZOePk>

⁴⁶ مقابلات شخصية أجراها الباحث في 10-12 نيسان/أبريل مع شخصيات مستقلة في بانياس، وجرى فحصها الداخلي والخارجي مع باحثين لم يرغبوا في ذكر أسمائهم.

⁴⁷ موقع التلفزيون السوري (جميع أخباره من سانا) 2011-4-13 <http://www.rtv.gov.sy/index.php?d=13&id=71857>

⁴⁸ الجزيرة نت "تعزيز أمني في بانياس وحمص" 2011-4-10

<http://www.aljazeera.net/NR/exeres/A211F381-4FCA-43EC-8D3D-35F3651FFFA2.htm>

⁴⁹ تشرين، 2011/4/13 على الرابط: <http://www.tishreen.info/first.asp> وكانت وزارة الداخلية قد نشرت عن وقوع (19 شهيداً و (75) جريحاً بين رجال قوات الشرطة والأمن في درعا، قارن مع: <http://www.tishreen.info/first.asp>. كما نشر مصدر مسؤول في وزارة الداخلية بياناً تحدث عن إصابة (34) عنصراً من رجال الشرطة بنيران عصابات مسلحة أمام مديرية الكهرباء في مدينة درعا، ولدى نقلهم إلى مشفى الصنمين تعرضوا لكمينٍ مسلح في إحدى القرى مما دعا إلى نقلهم إلى السويداء. قارن مع التصريح في جريدة الثورة السورية 2011/4/13 على الرابط: <http://thawra.alwehda.gov.sy>. بينما اعتبر بعض المعارضين أن تلك العمليات ليست إلا أنباء مختلقة أو من

فعل مجموعات سرية تحركها السلطة لتبرير عملية الهجوم الأمني المضاد على الحركات الاحتجاجية السلمية، وتتادوا لتوقيع بيان حول ذلك. ⁵⁰ قطعت نساء بانياس الطريق وسط الاحتجاجات وطالبن بالإفراج عن الأزواج والأبناء الذين بلغ عددهم (نحو 350 موقوفاً)، وتشكّلت على الفور لجنة تحقيق حكومية بتكليف مباشر من الرئيس، اجتمعت مع جهاء بانياس، وانتشر بموجب ذلك الجيش في أحياء البيضا كافة، لمنع تسلل العصابة المسلحة، والإفراج عن الموقوفين (تلفزيون BBC 13 نيسان/أبريل 2011- سماع مباشر) حول مجريات أحداث بانياس بعد عملية المجموعة المسلحة. قارن مع بيان منظمات حقوق الإنسان في سورية (9 منظمات) - بيان عن أحداث العنف الدامية في مدينة بانياس الساحلية. أمّا عدد الذين أفرج عنهم يوم 14 نيسان/أبريل 2001 فقد بلغ - وفق شهادة الشيخ أنس عيروط - ما بين (500-600) موقوفٍ، بينما بقي معتقلون أقل من ذلك العدد، وفق شهادة الشيخ. (حديث الشيخ أنس عيروط إلى نشرة أخبار الجزيرة في الساعة الثامنة من مساء يوم 15 نيسان/أبريل 2011). أمّا مواقع (يوتيوب) فقد نشرت فلم فيديو قصيراً.. بينما تظاهرت بانياس بعد الاتفاق على دخول الجيش إلى بانياس، لمنع تسلل "العصابة" مقابل عدم التدخل في حياة الأهليين، وهنفت بشعارات "لا إخوان ولا سلفية، نحننا بدنا حرة". وتكررت مثل هذه الشعارات في الكسوة، في ريف دمشق والزبداني، والتل وحمص كشعارٍ موحدٍ لمواجهة استراتيجيّة إخماد التحركات الشعبية وفق محور سلفية وإخوان/سلطة و"قوى تقدمية".

⁵¹ للاطلاع على تظاهرة جبلة جبهة اتبع الرابط التالي: http://www.youtube.com/watch?v=8tC8mI_LHeg

تسمح للمحتجّين بأن يدلّوا بمطالبهم من شرفتها أمام الجمهور المحتشد، صورة أخرى ستدخل خطوط التوتر العالي".

التقى الرئيس مع وجهاء بانياس، وتفاهم معهم على الإفراج عن المعتقلين في المدينة، و سحب قوات الأمن من المدينة، ودخول الجيش إليها لحفظ النظام، والحيولة دون دخول مجموعاتٍ مسلّحةٍ تذكّي نار الفتنة الطائفية⁽⁵²⁾. في 16 نيسان/أبريل ظهر شريط فيديو يظهر رجال أمنٍ و"شبيحة" في البيضا في بانياس يدعسون بأقدامهم أجساد موقوفين مبطوحين على الأرض وموثّقي الأيدي⁽⁵³⁾. ودار تجاذب حول الشريط ومدى صحّته من زيفه⁽⁵⁴⁾؛ لكن البياسي صرّح بأنّ الفلم حقيقي، وأنهم يعرفون من قام بذلك من سكّان القرى "العلوية" المجاورة، ثمّ اعتقل. ليدور جدلٌ حول موت البياسي الذي سرّب الفلم تحت التعذيب⁽⁵⁵⁾ ولقد استنارت حادثة "البيضا" ردّة فعلٍ نفسيّةً غاضبةً في الشارع المحتجّ لما حملته من إيحاءات رمزية كرّست صورةً "إجراميةً" مشيطنّةً لرجل الأمن، وعزّزت شعور "الكرهية" ضدّه وشرعيّة الانتقام منه، لدى شبابٍ وجدوا أنهم قد يواجهون الإهانة والمخاطر نفسها التي تعرّض لها شباب "البيضا".

توتّرت العلاقة بين الأحياء السنيّة والأحياء العلوية في بانياس، وبين بانياس السنيّة ومحيطها؛ ورداً على مزاعم وزير الداخلية بوجود "عصاباتٍ مسلّحة" في بانياس⁽⁵⁶⁾، طلب منه الشيخ عيروط في 19 نيسان/أبريل 2011 أن يعترف بوجود أسلحةٍ في القرداحة. وبهذا الشكل كانت هستيريا الخطاب الطائفي قد أخذت مداها⁽⁵⁷⁾. وفي سياق هذا التسعير الطائفي قُتل "نضال جنود"، وهو ينتمي إلى الطائفة العلوية،

⁵² الجزيرة نت: تظاهرات بالسويداء والجيش ببانياس، 15-4-2011. <http://aljazeera.net/NR/exeres/7081A3E6-FA57-48AE-B2A9-123D4504CF42.htm>

⁵³ <http://www.youtube.com/watch?v=wGLMX-DichY&feature=related> لمشاهدة فيديو قرية البيضا، اتبع الرابط التالي:

⁵⁴ أدعت مصادر إعلامية قريبة من السلطة، أنّ الشريط مزور عن حادثة وقعت في شمال العراق، ليظهر أحد الشباب الذين تعرّضوا للضرب والإهانة، في مقطع يؤكد أنه حصل في قرية البيضا (لمشاهدة شهادة الشاب أحمد البياسي من قرية البيضا: اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=IKRwjlsj5pg&feature=related> كانت عائلة البياسي مشتهرة في المدينة بوصفها إحدى أبرز العائلات التي تقوم علاقات "زبانية" قوية جداً بين عميدها وبين نائب الرئيس السوري السابق عبد الحليم خدام. وكان عميدها "رجل" خدام في المدينة، لكن ليس هناك أيّ دليل مقنع، على علاقة خدام بأي شيء جرى في بانياس.

⁵⁵ نشرت وسائل إعلام كالجزيرة والعربية في فترةٍ لاحقةٍ خبراً عن ناشطٍ تدعي أنه تعرّض للتعذيب في إدارة أمن الدولة في كفر سوسة، مع احتمال وفاته تحت التعذيب. فينشر التلفزيون السوري مقطعاً يظهر البياسي يقول: إنه لا صحة للأنباء التي عرضتها القنوات.

<http://www.youtube.com/watch?v=IKRwjlsj5pg&feature=related> كان وزير الداخلية، في معرض تبريره للخطوات التي اتخذتها السلطات في حمص، قد أشار إلى أنّ "مجرى الأحداث الأخيرة كشفت أنّ ما شهدته أكثر من محافظة سورية من قتل لعناصر الجيش والشرطة والمدنيين، والاعتداء على الممتلكات العامة وقطع الطرقات العامة والدولية، إنما هو تمرد مسلّح تقوم به مجموعات مسلّحة لتنظيمات سلفية، ولا سيّما في مدينتي حمص وبانياس".

⁵⁶ <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/61DDFD7B-C501-4D66-AE41-2011-4-19-7DBE218E8CBA.htm> و"قتلى بحمص سورية تتهم سلفيين" 19-4-2011

⁵⁷ حنّ عيروط في خطبته في 19 نيسان/أبريل 2011 من استبدال قانون مكافحة الإرهاب بقانون رفع الطوارئ. ورفعت في التظاهرة لافتات: الشعب يريد إسقاط النظام "و" ارحل"، وحرص على أن يذكر في كلمته مبدأ السلمية في التظاهر وهدف الحرية. اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=tBSyOQJNOiY>

ومثّل بجثته في 12 نيسان/أبريل 2011⁽⁵⁸⁾، وهو متعامل مع تجارة الخضار" في سوق بانياس للجملة (سوق الهال)، الذي يعدّ مركز "بورصة" الخضروات الشتوية المحمية وخصوصاً البندورة، على المستوى الوطني. وفي يوم "الجمعة العظيمة" طلب الشيخ عيروط من المتظاهرين ألاّ يمسّوا مقدّسات النظام، لأنه قد يردّ على تمزيق صور بشار الأسد بتمزيق صور آية الكرسيّ⁽⁵⁹⁾، فزاد الشيخ، ذو التكوين "الصوفيّ"، - درى أم لم يدّر - من صبّ الزيت على النار.

اضطرابات حمص والرستن

كانت حمص تتميز، مثل سائر المدن السورية، بـ"قابليّة الاحتجاج"، لكن ساهمت عوامل محدّدة هنا في استنارة هذه القابليّة - لم تكن قائمةً في مدينتين مليونيتين مثل: دمشق وحلب، وبالتالي في تسريع انخراطها في حركة الاحتجاجات؛ وتتحدّد هذه العوامل المتضاربة بما يلي:

الأول، قضية "طلّ الملوحي"؛ التي أصابت الرواية الرسمية عن مبرّرات اعتقالها، شرف العائلة الملوحيّة الحمصيّة وكرامتها في الصميم، ومن خلالها كرامة المدينة⁽⁶⁰⁾، وتحوّلت إلى "عنوان" عند الناشطين كمدوّنة⁽⁶¹⁾، وغدت قضيتها - ضمناً - قضية "مدينة" بشكلٍ معقّد. وأنشئت صفحة على الفيسبوك، انخرطت في نقل المشهد الاحتجاجي والدعوة إلى التظاهر باسمها⁽⁶²⁾. كما طالب العديد من التظاهرات النسائية في مدينة حمص، بالإفراج عنها والاعتذار لأهالي المدينة⁽⁶³⁾.

⁵⁸ - في 21 - 4 - 2011 قتل نضال جنود وعرضت صور لقاتليه وللممثل الذي لحق بجثته. اتبع الرابط <http://www.youtube.com/watch?v=JvLMQn0B5c8&feature=related>، وبثت قناة "الدنيا" مقابلةً مع من يزعم أنه صديقه. اعترافات قتلة نضال جنود وهم الأشخاص أنفسهم الذين ظهروا في الصور، قارن مع الرابط: http://www.youtube.com/watch?v=NzZ_37qWjPs&feature=related&skipconrinter=1

⁵⁹ خطبة أنس عيروط في 22 - 4 في الجمعة العظيمة، الرابط: <http://www.youtube.com/watch?v=WGASp9st4Js>، وخصوصاً مقالتها "رسالة إلى رئيس الجمهورية". في حين أوردت وزارة الخارجية بياناً شرحت فيه تفاصيل قضيتها، بعد اتهامها بالتجسس لصالح السفارة الأميركية في القاهرة؛ وسأقت في روايتها، تفاصيل علاقة جنسية أقامتها طلّ الملوحي مع ضابط نمساوي وهي في عمر الخامسة عشرة، ثم قام بتجنيدتها في القاهرة وتصويرها، لابتنزازها من أجل تقديم معلومات عن ضباط أمن سوريين في القاهرة - تسببت في شلّ أحدهم خلال عملية استهدافه من قبل أحد الملاحقات بالسفارة الأميركية في القاهرة. للاطلاع على السرد الرسمي لقضية طلّ الملوحي، نشرت الوطن السورية جانباً من اعترافاتها أمام قضاة محكمة أمن الدولة بتاريخ 20-2011-2

⁶⁰ <http://www.alwatan.sy/dindex.php?idn=96357> كانت طلّ الملوحي عنوان تظاهرة "جمعة العزة" في 25 آذار/مارس 2011، التي طالبت بطلّ الملوحي وندّدت بحزب الله، وهتفت بـ"بدنا طلّ الملوحي، بدنا طلّ الملوحي"، و"يا نصر الله خد كلابك وارحل عنا". قارن مع الرابط: <http://www.youtube.com/watch?v=7oO8E-MxoaI>

⁶¹ <http://www.youtube.com/watch?v=7oO8E-MxoaI> بلغ عدد المشتركين في صفحة "كلنا طلّ الملوحي" ما يقارب 15 ألف مشترك، ولمشاهدة الصفحة اتبع الرابط التالي: <http://www.youtube.com/watch?v=7oO8E-MxoaI>

الثاني، ممارسات المحافظ، الذي كثّف في سلوكه التسلطي المفرط، ديناميات النظام التسلطي المنزّل (نسبة إلى ليبرالية=الحرية السياسية والاقتصادية) برمتها- بصورة مجسّمة؛ إذ جسّم صورة التحالف "اللوبي" بين البيروقراطية وشريحة رجال الأعمال الجدد، التي جرت عملية إعادة تشكيلها في صورة ما اصطّلحنا على تسميته بـ"المئة الكبار"، ومحاولة استملاك "منطقة البساتين" - أخصب أراضي حمص الزراعية - لصالح استثمارات رجال الأعمال الجدد⁽⁶⁴⁾. وقد طالبت تظاهرات حمص منذ بداياتها بعزل المحافظ؛ وحملت بعض التظاهرات شعاراً: "الشعب يريد إسقاط المحافظ"، وترتّب على ذلك إقالته⁽⁶⁵⁾ في 7 نيسان/أبريل 2011.

الثالث، آثار الحملة الأمنية على المطلوبين في الربع الأخير من العام 2010، التي طالت بعض وجهاء العشائر البدوية، وعائلات الأحياء الطرفية التي ينحدر عددٌ كبير من سكّانها من أصولٍ بدويّة، والتضيقات التي قامت بها السلطات على عملية تهريب المازوت، والتي كانت تشكّل المصدر الوحيد لدخل المئات من العائلات. وقد اضطرّ بعض شيوخ العشائر الحمصيّة- وهم جميعاً من العشائر الرعيّة- للعمل في التهريب، بسبب تدهور نمط الإنتاج الرعيّ، وارتفاع كلفة تربية الرأس الواحد من الغنم، وتناقص ثروات المربيين من نحو خمسة إلى ستة آلاف رأس غنم إلى نحو ألف رأس فقط، بحيث تقلّص حجم الثروة الحيوانية إلى نحو 20% من حجمها السابق، وتحوّل المفلسون منهم إلى "رعاة" أو إلى مهاجرين إلى أطراف الأحياء العشوائية في مدينة حمص⁽⁶⁶⁾، التي تتركّز في أربع مناطق عقارية من بينها دير بعلبة، و بابا عمرو، وتشكّل محيطاً طرفياً يبدأ من الشمال الشرقي للمدينة ثم يمتدّ من شرقها إلى الجنوب وحتى الجنوب الشرقي، وأجزاء صغيرة منه تمتدّ اسفينياً في محيط الأحياء الداخلية كأحياء: الشماس وكرم الزيتون والسيل والمهاجرين.

<https://www.facebook.com/pages/%D9%83%D9%84%D9%86%D8%A7-%D8%B7%D9%84-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%84%D9%88%D8%AD%D9%8A-We-are-TALL/187557447941922?ref=ts>

⁶³ لمشاهدة التظاهرة النسائية في ساحة الساعة القديمة والتي طالبت بالإفراج عن ظل الملوحى بتاريخ 6 - 4-2011 اتبع الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=eqt3DS4NzNM&feature=player_embedded

⁶⁴ بني في إطار هذه الشراكة برجان على أرض زراعية في منطقة "الغاردنيا"، وبيعت الشقة الواحدة من المشروع بمئة مليون ليرة سورية (2 مليون دولار)، كما وضعت خطة "تطوير" أخرى تقوم على تحويل بساتين غربي حمص من الميماس إلى طريق طرابلس - وهي من أجود الأراضي الزراعية المروية في حمص وسوريا قاطبة، ومن أجمل الفضاءات البيئية التراثية - إلى منطقة عقارية فاخرة، و توجيه إغلاق كل من مصفاة حمص ومعمل الأسمدة لاستملاك أراضيها لصالح الشركات الخليجية. وكان ما يداعب خياله هو تحويل مدينة تدمر إلى ما هو أشبه بمقرّة كبرى، على غرار "لاس فيغاس"، وكان هذا النموذج رائده الأعلى في حديثه اليومي عن استثمار تدمر. من حوارات الباحث مع عدة شخصيات مختصة، كان منها الدكتور زهير جبور عميد كلية الهندسة المعمارية بجامعة البعث" حمص" في كانون الأول/ديسمبر 2010، وحسني العظمة في مراسلة في 20 تموز/يوليو 2011

⁶⁵ موقع دي برس (السوري)، <http://www.dp-news.com/pages/opinion.aspx?opinionsubjectid=192>

⁶⁶ الوطن (السورية)، حيث جاء في الجريدة في 2011/7/14: "شيوخ عشائر في حمص: تهيش الحكومة للبدو أضعف العلاقات العشائرية، تلخيص ما دار في الاجتماع بين رؤساء عشائر البدو في حمص والمحافظ الجديد غسان عبد العال".

وفي البداية برز دور بعض النشطاء الديمقراطيين المسيّسين من الفئات الوسطى، في جعل حمص بؤرةً لحركة الاحتجاجات منذ اندلاعها⁽⁶⁷⁾، والتي كان محيطها متمثلاً في البداية بحيّ الخالدية الذي خرجت منه أولى التظاهرات عندما تجمع نحو مئتي شخص أمام مسجد خالد بن الوليد في "جمعة العزة" في 18 مارس/آذار 2011؛ لتتفجّر بعدها شرارة الاحتجاجات من أهالي المدينة في حيّ البياضة⁽⁶⁸⁾، والتي حاولت قوّات الأمن تفريقها، واستهدفت إحدى الفتيات على إحدى شرفات المنازل في الحيّ أثناء قيامها بتصوير التظاهرة⁽⁶⁹⁾. عقب ذلك حصلت هبةٌ أحياء تير، ومعلة، وبابا عمرو. وانتقلت إلى الخالدية.

لكن ما جعل نقطة الزيت تنداح بشكلٍ "ملتهبٍ" قابلٍ للمفاجآت؛ لم يكن هذه الفئات، بل انخراط أحياء بعيدة نسبياً عن تلك الأحياء في حركة التظاهرات، منها حيّ الخالدية في الجهة الشمالية من حمص وشارع القاهرة. وترافق دخول هذه المناطق على خط الاحتجاجات، مع إشكالٍ ذي بعد طائفي – ربما بسبب القرب والتماس الجغرافي – بين حيّ الخالدية وشارع القاهرة، الذي يفضي إلى أحياء مثل الزهرة والنزهة والحضارة التي تقطنها أغلبية علوية ومرشدية.

وتضافر توتر الوضع مع مزج شعارات إسقاط النظام، بشعاراتٍ استهدفت الرئيس وعائلته بشتائم "سوقية" من جهةٍ، وبروز شعارات طائفية في الخالدية، ظهرت عقب هجوم الشبيحة على مسجد النور في الخالدية- الذي كان المتظاهرون يتجمعون فيه عادة للانطلاق في التظاهرة- ومقتل أحد وجهاء العشائر البدوية. فقد ارتفع هتاف: "بدنا نحكي عالمكشوف، علوية ما بدنا نشوف" جنباً إلى جنبٍ مع شعارات: "بالروح بالدم نفديك يادراعا" و" الشعب يريد إسقاط النظام". و" ياحمص يا حيف، شعبك واقف عالرصيف"⁽⁷⁰⁾. وجاءت قضية اغتيال العميد عبود خضر التلاوي (سنّي المذهب) وولديه وابن شقيقه والتمثيل بجثثهم⁽⁷¹⁾، وتزامن

⁶⁷ كان من أبرز من اعتقل منهم، محمد نجاتي طيارة، وهو مدرس لغة عربية متقاعد، وحامل وسام حرب تشرين التحريرية (1973)، وعضو سابق في حزب العمال الثوري، ثم ناشط في اللجان الديمقراطية الجديدة التي تحركت خلال فترة (2000-2010) من أجل تحقيق الإصلاحات السياسية.

⁶⁸ خلال الأسبوع الأول من الاحتجاجات، خرجت تظاهرة في حيّ البياضة الذي ينحدر معظم سكانه من أصول بدوية، تأثروا بالحملة الأمنية قبل الاحتجاجات.

⁶⁹ حاولت السلطات الأمنية- بتوجيه من المحافظ السابق "إياد غزال"- احتواء الموقف من خلال محاولة إقامة بيت عزاء؛ يحضره القادة الأمنيون والمحافظ، يكون تمهيداً لإنتاج تسوية "دية"، لكن وجهاء الحي ذوي الأصول البدوية؛ قاموا بتكيس العُقل، في إشارة إلى رفض هذا المسعى. تستند هذه المعلومات إلى شهادات ميدانية أجراها فريق البحث في المركز.

⁷⁰ رُدد شعار "بدنا نحكي عالمكشوف" مرّةً واحدةً فقط من قائد مجموعات الهتافات ثم جرى الانتقال إلى هتافٍ آخر، من هتافٍ آخر. للاطلاع على الشريط راجع الرابط:

<http://www.youtube.com/watch?v=BpuW Vn-o3O8> في الفترة نفسها وزعت منشورات في مناطق أخرى، كان - فيما سجل منها - منشورٌ؛ وُزِعَ في حيّ توما المسيحي في دمشق، وورد فيه شعار: " علوي على التابوت، ومسيحي على بيروت" (محادثات أجراها حمزة مصطفى مع شباب فرؤوا المنشور). في الوقت نفسه، ارتفعت ونيرة شعارات أهل برزة البلد الأصليين ضد الوافدين، وتشكلت - على ما يبدو- مجموعات صغيرة من الفتيان؛ سجل من إحداهما، تلاوة القرآن في الصباح الباكر، أمام منزل إحدى العائلات التي تنتمي إلى الطائفة المرشدية، في جوار حي برزة البلد، مما دفع هذه العائلة إلى الهجرة من الحيّ (محادثة أجراها الباحث في 18 نيسان/أبريل مع العائلة المذكورة).

⁷¹ الوطن (السورية)، 2011/4/ 19، انظر موقع جريدة الوطن الإلكتروني على الرابط:

<http://alwatan.sy/newsd.php?idn=99683>

ذلك في اليوم نفسه مع اغتيال الرائد إياد حروفش (علوي)، والعقيد معين محلاً (علوي) من قبل "مجموعات مسلحة" بحسب الرواية الرسمية⁽⁷²⁾، لتقضي إلى استقطابات واحتقان طائفي في الأحياء المختلطة مذهبياً (الحميدية، الوعر)، وأحياء التماس (الخالدية - حي الزهرة). وتزامن ذلك مع رواية رسمية بوجود القتل في إطار جماعات سلفية، تظاهرت في حمص قبيل عملية نفذها الجيش في باب السباع في 18 نيسان/أبريل 2011، بعد تظاهرات كبيرة شهدتها المنطقة.

خلال هذه المرحلة، برز الاحتقان الطائفي الذي أخذ شكل تضامنية طائفية، سواء في حيّ الزهرة والنزهة، أو في أحياء حمص التقليدية: باب السباع، باب الدريب مع الخالدية. لكن ما برز على السطح لم يكن سوى شكل الوعي المقلوب بمشكلة الخراب الاقتصادي "الفعلية" التي عانت منها تلك الأحياء، كمشكلة طائفية. ويساوي الوعي المقلوب الأيديولوجيا كوعي زائفٍ بالواقع.

كانت الأحياء الحمصية الطرفية - التي تتسم بانحدار قسمٍ مهم من سكانها من أصولٍ بدوية - متعدّدة بحكم تشكيل بادية حمص الكبيرة، أحد أهم مصادر الهجرة الداخلية إلى المدينة، ومن أكثر الأحياء انخراطاً في حركة الاحتجاجات. ولقد تضررت هذه الأحياء الطرفية جميعاً، بحملة المداهمة التي نفذتها الحكومة في تشرين الأول/أكتوبر 2010، سواء أكان ذلك من ناحية عدد الموقوفين منها، أم من ناحية تقلص مواردها الناتجة من التهريب⁽⁷³⁾. ومن أبرز تلك الأحياء، حيّ "بابا عمرو" الذي تطوّر من قرية صغيرة يقطنها بدو مستقرّون، ينتمي معظمهم إلى عشيرة "المشاهدة" (العقيدات)، إلى حيّ كثيفٍ سكانياً ملتصقٍ بالمدينة، وهو من الأحياء التي انخرطت في حركة الاحتجاجات، وشكّلت وقوداً أساسياً لها.

في 18 نيسان/أبريل 2011 سلّمت سلطات الأمن جثمان الشيخ بدر أبي موسأحد زعماء عشيرة الفواعرة في حمص، الذي اعتقل قبل أسبوع، إلى نويه لدفنها. وثار شباب الفواعرة، وانطلقوا في تظاهرات صاخبة، تضامنت معها الغالبية البدوية في الأحياء الحمصية الأخرى، وهتفت بشعارات: "زقة زقة، دار دار، بدنا نطيح بيك يابشار"⁽⁷⁴⁾. و لم تستطع القيادة التقليدية للعشيرة، ممثلةً في الشيخ فدعوس عضو مجلس الشعب والمؤيد للحكومة، أن تسيطر على الوضع، فانخرط الشباب على نحو راديكالي غاضب، من حيث

⁷² <http://alwatan.sy/newsd.php?idn=99683>

⁷³ ضيّقت الحكومة على مصدر دخل الكثير من العائلات المشتغلة بالتهريب، دون أن تؤمن لهم مصادر بديلة، أو تساعدهم عليها.. فقد كان معظم عائلات حي بابا عمرو، يعيش من عوائد التهريب - خصوصاً تهريب مادة المازوت، إذ كان الحيّ المحطة الأبرز؛ لتجميع مادة المازوت المهزبة، وتعبئتها في الصهاريج. وكان "المهزبون" الصغار - في هذا الحي - كالذباب "الصغير" المسكين، في شبكة "الذباب الكبير". فقد كانوا مؤلفين من فئة راكبي الدراجات النارية، التي تحمل خزانات صغيرة على شكل براميل يتسع الواحد منها لـ(200) لتر لملء صهاريج التهريب.
⁷⁴ لمشاهدة التظاهرة اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=FsRjerD9590>

الكثافة والشدة، في حركة الاحتجاجات. وانتهز القطب العشائري المعارض - في إعلان دمشق - هذه الحادثة وما نتج منها، في تسمية جمعة الأول من أيار/مايو بـ "جمعة العشائر"، لإدماج العشائر في الحركة. غير أنّ من شارك فيها من العشائر، كانوا أساساً شباباً من البقارة في دير الزور، بقيادة الشيخ فيصل البشير، والعقيدات في دير الزور والبوكمال خصوصاً بقيادة عددٍ من عائلة الدندل التي تنحصر فيها رئاسة العقيدات، وفي مقدّمهم الشيخ الشاب أمير مشرف الدندل، وجاءت مساهمة العقيدات في حمص عبر فرعهم القويّ "المشاهدة" الذي يقطن معظم أفرادها في حيّ بابا عمرو. وفي "جمعة العشائر" هذه رفعت عشيرة الفواعرة في حمص، هتافات "فزعة" "العشاير" و "بلاد القبائل" لدرعا، جنباً إلى جنب هتافات لـ "وطنا الغالي" و "الحرية" و "الشهداء" في شكل "شديّة" أو "عراضة" ينشدها أحد المنشدين، ويردّها خلفه المتظاهرون (75)، وشعار "علجنة رايحين، شهداء بالملايين" (76).

أدى موت الشيخ الحمود في هذا السياق إلى اندلاع اضطراباتٍ حادّةٍ في 18 نيسان/أبريل 2011 بين جماعته والسلطات استشهد فيها 14 شخصاً وأصيب أكثر من 50 آخرين (77). وكانت الأحداث قد اندلعت قبل ذلك في 15 نيسان/أبريل 2011 في الرستن وتلبيسة الواقعتين على الطريق الدولي بين حمص وحماة، وحرقت المحتجون تمثال الرئيس الراحل حافظ الأسد في مشهد احتفالي (78)، طغت عليه هتافات "الشعب السوري واحد واحد" قولوا الله قولوا الله، شعب الرستن موحياً الله (79) وقام المحتجون بالتمثيل بالتمثال وكأنه جنة حيّة، وفي إطار دينامية "التشقي" نُقل رأسه في موكب احتفالي انتصاري إلى تلبيسة (80). وفي 18 نيسان/أبريل سقط أربعة قتلى في بلدة تلبيسة التي يتألف أغلب سكانها من الفواعرة، و الواقعة شمال حمص على طول الطريق الدولي حمص-حماة (81)، وتعد "تلبيسة" نموذجاً للمدن الصغيرة، إذ يبلغ عدد سكانها 35501 نسمة، لكنها مع قراها تبلغ 73526 نسمة. واتهمت السلطات أهل تلبيسة بقطع الطريق الدولية ساعاتٍ طويلة، والاعتداء على مخافر الشرطة التي كان لديها أوامر صارمة بعدم التعرض

⁷⁵ للاطلاع على الهتافات اتبع الرابط:

<http://www.youtube.com/watch?v=Vw9NhZ7MRu0>

⁷⁶ للاطلاع على هذه الهتافات اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=tCfivkRpj00&NR=1>

⁷⁷ - روسيا اليوم، مقتل 14 شخصاً في اشتباكات بين المحتجين وقوات الأمن في حمص السورية، 18-4-2011،

http://arabic.rt.com/news_all_news/news/67814

⁷⁸ للاطلاع على المشهد، انظر الرابط: <http://www.youtube.com/watch?v=qEQX6NfYDKA>

⁷⁹ للاطلاع على المشهد، انظر الرابط: <http://www.youtube.com/watch?v=ms4ENICCCJc&feature=related>

⁸⁰ للاطلاع على المشهد، انظر الرابط: <http://www.youtube.com/watch?v=XS4W4BVAf7BE&feature=related>

⁸¹ - الجزيرة نت: 14 قتيلاً في تظاهرات حمص، 18-4-2011، [http://aljazeera.net/NR/exeres/0D105921-2811-4DE1-9046-](http://aljazeera.net/NR/exeres/0D105921-2811-4DE1-9046-BB69008A9CFE.htm)

BB69008A9CFE.htm

للمتظاهرين، مما استدعى تدخل الجيش⁽⁸²⁾. وفي هذا اليوم اعتصم الآلاف في مدينة حمص للمطالبة بإسقاط النظام عقب تشييع الشهداء⁽⁸³⁾. لكن الاعتصام لم يستمر، ففي فجر 19 - 4 - 2011 تدخلت قوات الأمن لفضّ اعتصام آلاف المحتجين في حمص، مما أدى إلى مقتل أربعة أشخاص⁽⁸⁴⁾. وسادت فوضى اشتباكات سقط فيها عشرات من المتظاهرين ورجال الجيش ورجال الأمن ووجه الاتهام إلى مجموعاتٍ سلفيةٍ متطرفةٍ تعمل على تشكيل إمارةٍ إسلاميةٍ، فعومت قضايا المتظاهرين في قضايا المهريين، وخلطت الأوراق بشكلٍ دراماتيكي⁽⁸⁵⁾. أمّا اللاذقية فكانت تغلي لكن لم يتحرك فيها شيء خلال هذه الفترة⁽⁸⁶⁾.

"ثورة درعا": الشباب الراديكالي من الصياصنة إلى رزق الله أبازيد

في 14 نيسان/أبريل 2011 اجتمع الرئيس إلى وفد وجهاء درعا، واتفق على انسحاب القوى الأمنية من مدن درعا للحيلولة دون تجدد الصدام بينها وبين المتظاهرين، مقابل تعهد الوجهاء بتهدئة الأهالي، وتنظيم الأمن الذاتي. ورفعت الحواجز الأمنية بالفعل في اليوم نفسه⁽⁸⁷⁾. أشاد رئيس الوفد الشيخ الصياصنة إثر اللقاء بـ "رحابة صدر الرئيس"، ودعا الجميع إلى التوقف عن التظاهر، "لأنّ المطالب قد استجيب لها"⁽⁸⁸⁾. غير أنّ بعض القيادات الميدانية الشابة التي أنتجتها سيرورة الأحداث، وغدت أكثر راديكاليةً، وحاولت

⁸² - دي برس: المعلم: الإصلاح قائم ومستمر والتخريب لا يمكن السكوت عنه، 2011-4-18، <http://www.dp-news.com/pages/detail.aspx?articleid=81147>

⁸³ - الجزيرة نت: اعتصام في حمص للمطالبة بإسقاط النظام، 2011-4-18، <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/70F40009-34A5-4BCF-818E-A503F999DA7E.htm>

⁸⁴ - الجزيرة نت: قتلى في حمص وسورية تتهم سلفيين، 2011-4-19، <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/61DDFD7B-C501-4D66-AE41-7DBE218E8CBA.htm>

⁸⁵ الجزيرة نت: قتلى في حمص وسورية تتهم سلفيين، 2011-4-19، <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/61DDFD7B-C501-4D66-AE41-7DBE218E8CBA.htm>

⁸⁶ في 15 نيسان/أبريل حين خرجت اللاذقية في تظاهرات كان الوضع هادئاً، ولم يتخلل ذلك سوى إطلاق عباراتٍ ناربيةٍ محدودةٍ، لكنها في 22 نيسان/أبريل 2011 كانت هادئةً وشبه خالية من الناس (تعليق فاتح جاموس: أحد منظمي التظاهرات، أخبار الجزيرة، الساعة الثامنة من مساء 15 نيسان/أبريل 2011). في يوم الجمعة العظيمة (22 نيسان/أبريل 2011) كانت المدينة خالية من التظاهرات والتجمعات - تقريباً - باستثناء تجمعاتٍ، يحتمل أنها لأنصار السلطة أو قوى الأمن السرية، لكن الجو كان متوتراً وحذراً. (أكثم نعيسة، تعليق في نشرة أخبار الجزيرة، الساعة الثانية من يوم الجمعة 22 نيسان/أبريل 2011).

⁸⁷ الجزيرة نت: تظاهرات في السويداء والجيش في بانياس، 2011-4-15، <http://aljazeera.net/NR/exeres/7081A3E6-FA57-48AE-B2A9-123D4504CF42.htm>

⁸⁸ - <http://www.youtube.com/watch?v=TILgMEDIt2w>

ثنى الشيخ ووفد الوجهاء عن مقابلة الرئيس كي لا يستغلها الإعلام في الالتفاف على المطالب (89)، عارضت نتائج اللقاء، واتّهمت الوفد بالتفريط في "حقوق" درعا و"مطالبها"، بل وتعرّض الشيخ لتهمة "الخيانة" (90)، ممّا أحدث أول شرخٍ حقيقي بينهم وبين الشيخ.

كان هذا الشرخ تعبيراً عن شرخٍ أوسع هو الشرخ الجديد بين الشباب والشيخ. ويبدو أنّ الشباب تنادوا في هذه الظروف لتعبئة صفوفهم ومحاولة التسلّح لقطع الطريق على "الصفقة". شكّل هؤلاء نواة مجموعةٍ شبه عسكريةٍ دفاعية بدائية وبسيطة بقيادة الشاب إبراهيم المسالمة (23 عاماً) الذي وقع بعض أبناء عائلته بين ضحيةٍ ومعتقل في الأحداث. وتولّت هذه المجموعة المورّعة على أحياء درعا البلد - في البداية - حراسة الأحياء بـ "العصي" و ببعض "بنادق البومبكتشن ومسدّسات وبنادق صيد وبنادق حربية من نوع كلاشنكوف"، وتطوّر نشاطها لتضمّ نحو 200 شاب (91). كان هذا -حتى ذلك الحين - جزءاً من الاتفاق في أن يتولّى وجهاء درعا تنظيم الأمن الذاتي مادامت قوى الأمن ستسحب من المدينة (92). لكن قيادة الجماعة السلفية "السرورية" في الخارج بقيادة الشيخ محمد سرور زين العابدين أخذت تضغط على الشيخ الصياصنة، وعن طريق أحد أقربائه اللصيقين به، للتحوّل عن موقفه "المهدئ"، ودعوته إلى تجذير موقفه، غير أنّ الشيخ لم يستجب لهذه الضغوطات (93).

ويبدو أنّ المجموعة الشبابية الغاضبة على تسويةٍ لم تضع القتلة في السّجن والمحاكم، حوّلت في هذه اللحظات، مرجعيّتها الفتوية من الشيخ الصياصنة إلى الشيخ رزق الذي أفتى "بإطلاق النار على الجيش والأمن" (94) (الشيخ رزق هو رزق الله أبا زيد مفتي درعا). ويبدو أنّ هذه "الفتوى" التي لا توجد أي معلوماتٍ موثقةٍ عنها، لكن يمكن توقّعها، قد صدرت في ضوء فهم طريقة التفكير الفتوي السلفي، على أساس مفهوم "دفع الصائل"، وهو المفهوم الفقهي الشرعي لحقّ الدفاع المشروع عن النفس. فلقد بات

⁸⁹ هذا ما يمكن استنتاجه من مقابلة الشيخ الصياصنة مع التلفزيون السوري، حيث يتحدث ملخّص المقابلة، عن ورود اتصالات - قبل ذهابه مع الوفد لمقابلة السيد الرئيس - من أشخاص ادّعوا أنّ الدولة ستستغلّ هذا اللقاء إعلامياً - فقط - ولن تحقّق لهم شيئاً. قال الصياصنة: ليلة ذهابنا إلى السيد الرئيس؛ اتصل بي أحدهم، وقال لي: "أنا رجل إعلامي، وأنصحك - يا شيخ - ألا تذهب. فقلت له: لماذا؟ فقال: لأنهم سوف يستغلون ذلك إعلامياً، ويقولون: جاء هؤلاء للتأييد، ولن يقولوا: إنهم جاؤوا لعرض المطالب.. والذي أرجوه، ألا تخيب آمالنا إذا ما ذهبت - إلى الرئيس - ورفاقك؛ لأن ذلك سيكون التفافاً على الثورة في سورية". فقلت له: "دع الأمر، لأنني أنا الذي أفكر، وأنا الذي أقرر".

http://www.youtube.com/watch?v=RdIFJh1KfFA&feature=player_embedded

⁹⁰ من مقابلة الشيخ الصياصنة مع التلفزيون السوري بتاريخ 27 أيار/مايو 2011.

http://www.youtube.com/watch?v=RdIFJh1KfFA&feature=player_embedded

⁹¹ اعترافات إبراهيم المسالمة قائد ثورة درعا، الوطن (السورية) 3- 5- 2011.

⁹² من خطاب الشيخ رزق أبي زيد - مفتي درعا يقدم استقالته في 2011/4/23 قارن مع النص الكامل في:

http://www.youtube.com/watch?v=KNE3jC_DbEg&feature=related

⁹³ من مقابلة الشيخ الصياصنة مع التلفزيون السوري.

http://www.youtube.com/watch?v=RdIFJh1KfFA&feature=player_embedded

⁹⁴ هذا ما يمكن استنتاجه من اعترافات المسالمة، الوطن (السورية) 2011/5/3.

واضحاً أن الشيخ رزق قد بات أكثر قرباً من الشباب مقابل الصياصنة الذي انفضوا من حوله. وقعت خلال هذه الفترة سلسلة هجماتٍ على مواقع للجيش في درعا، وعلى سيارات قوى الأمن الداخلي، نجم عنها وقوع إصابات وسقوط عدة شهداء⁽⁹⁵⁾ وتكررت هذه الهجمات المنسوبة إلى "عصاباتٍ مسلحةٍ" في 22 و23 نيسان/أبريل، مما جعل العسكريين يعتقدون أنّ هيبة الجيش تحت المحكّ، وأنّ الاعتداءات تخفي خلفها ما هو أدهى منها، وهو المؤامرة. وهكذا استُدْرَج الجيش إلى "الفتح" وهو فتح العصابيين (أتباع العصابات) للاستفزاز الذي يتلخّص في قيام عناصرٍ محدودةٍ بإطلاق نارٍ على مراكزه والفرار، فبرّد الجيش عادةً بقوةٍ على المكان الذي أطلقت منه النار وعلى محيطه، ويؤدّي ذلك إلى توريثه في أزمةٍ مع الأهالي المحليين، فيعود العصابيون ويقولون للأهالي: ألم نقل إنّ هذه هي خطة السلطة ضدنا؟ هذا هو "فتح العصابيين للاستفزاز".⁽⁹⁶⁾

خلال هذه الفترة توارى الشيخ رزق عن الظهور إلى أن برز في يوم السبت 23 نيسان/أبريل 2011، مُحيياً الشباب الذين "أذاقونا" معنى الكرامة ومعركة الحرية في مدينة درعا أمّ اليتامى⁽⁹⁷⁾. كانت مجزرة ازرع في قلب الحدث، حيث قُتل عشرات المتظاهرين بنيران حاجزٍ للجيش في منطقة ازرع⁽⁹⁸⁾ التي سقط فيها 30 شهيداً بإصاباتٍ مباشرة⁽⁹⁹⁾. وفي هذا اليوم قدّم المفتي علناً استقالته من منصبه⁽¹⁰⁰⁾، وقدّم معه

⁹⁵ قارن مثلاً مع ما نشرته "تشرين"، 2011/4/13 على الرابط: <http://www.tishreen.info/first.asp> وكانت وزارة الداخلية قد نشرت عن وقوع (19) شهيداً و (75) جريحاً بين رجال قوات الشرطة والأمن في درعا، قارن مع: <http://www.tishreen.info/first.asp>، كما نشر مصدرٌ مسؤولٌ - في وزارة الداخلية - بياناً، عن إصابة (34) عنصراً من رجال الشرطة بنيران عصابات مسلحة؛ أمام مديرية الكهرباء في مدينة درعا، ولدى نقلهم إلى مشفى الصنمين، تعرضوا لكمين مسلح في إحدى القرى، مما اضطر لنقلهم إلى السويداء. قارن مع التصريح في جريدة الثورة السورية 2011/4/13 على الرابط: <http://thawra.alwehda.gov.sy>. بينما رأى بعض المعارضين، أن تلك العمليات ليست إلا أبناءاً مختلفاً، أو من فعل مجموعات سرية تحركها السلطة، لتبرير عملية الهجوم الأمني المضاد على الحركات الاحتجاجية السلمية، وتنادوا لتوقيع بيان حول ذلك.

⁹⁶ "هاجم عدد من أهالي منطقة ازرع، عناصر الحراسة في مديرية منطقة ازرع بالحجارة، ثم أطلق بعضهم الأعيرة النارية، فتصدت لهم عناصر الجيش بالرد على مصادر النيران، مما أدى إلى مقتل ثمانية أشخاص وجرح ثمانية وعشرين آخرين من الأهالي ومن عناصر الجيش. صحيفة الثورة السورية قالت: "شهيدان وإصابة (11) من رجال الشرطة، باعتداءاتٍ غادرةٍ في حمص" (الثورة، 2011-4-23). ويحتوي الخبر "الرسمي" في 23-4-2011 - كذلك - على هجماتٍ في الحراك ودرعا وحمص والمعضمية، قارن مع الرابط:

http://thawra.alwehda.gov.sy/_archive.asp?FileName=23237748420110423030125

"وفي بلدة الحراك هوجمت نقطة المراقبة العسكرية، وضبطت موبايلات (هواتف جواله) مزوّدة بشرائح غير سورية، وكاميرات ديجيتال (رقمية)، وزجاجات دم"، قارن مع - صحيفة الثورة السورية: "ضبط موبايلات وكاميرات ديجيتال" 2011-4-23. أخذت تصريحات المصدر المسؤول في الجيش والقوات المسلحة تتواتر عن اشتباكاتٍ أخرى، قارن مع - صحيفة البعث السورية: "استشهاد (5) من عناصر الأمن في هجوم مجموعة إجرامية على مفرزة أمنية في نوى" 2011-4-24،

<http://www.albaath.news.sy/user/?id=1119&a=99336>

⁹⁷ خطاب الشيخ أبي زيد، مصدر سبق ذكره.

⁹⁸ يظهر في الفيديو متظاهرون أمام حاجز من أفراد الجيش ينادونهم بأنكم "أخواتنا"، فيرد الجنود بإطلاق النار من مسافةٍ قريبة.

https://www.youtube.com/watch?v=wSjpOqdPsc0&feature=player_embedded

⁹⁹ لمشاهدة تشييع الشهداء في ازرع بتاريخ 23 نيسان/أبريل 2011 اتبع الرابط التالي:

http://www.youtube.com/watch?v=g2lz_7yyvyo&feature=related

¹⁰⁰ http://www.youtube.com/watch?v=KNE3jC_DbEg&feature=related

النائبان ناصر الحريري وخليل الرفاعي في اليوم نفسه استقالتهما من عضوية مجلس الشعب السوري بسبب إطلاق قوات الأمن النار على المتظاهرين⁽¹⁰¹⁾. كما قدّم عضو مجلس محافظة درعا يمان المقداد استقالته⁽¹⁰²⁾، وأعلن فرع "الوحدويين الاشتراكيين" استقلاله عن قيادة الجبهة، كما أعلنت قيادات النقابات المهنية والعلمية استقلالها إضافةً إلى استقالاتٍ جماعيّةٍ من بعض أعضاء حزب البعث.

خلاصة تركيبية

تشتمل هذه المرحلة على أربع "جمع" هي "جمعة الشهداء" (1 نيسان/أبريل)، و"جمعة الصمود" (8 نيسان/أبريل)، و"جمعة التحدي" (15 نيسان/أبريل)، و"الجمعة العظيمة" (22 نيسان/أبريل). وشكّلت "الجمعة العظيمة" فيها فصلها الأكثر دمويّة، إلى درجة أنه بإمكاننا وصفها بـ"الجمعة الدامية"، إذ قتل فيها 112 متظاهراً، منهم 48 شهيداً ينتمون إلى ريف دمشق، و30 إلى مدينة ازرع في منطقة درعا، و27 إلى حمص وخمسة إلى حماة، وشهيد واحد في اللاذقية. وخلال ذلك كان انتشار شعار "إسقاط النظام" قد أخذ يتواتر، لكنه لم يكن محطّ إجماعٍ في جميع بؤر الاحتجاج. فقد غاب عن دمشق وتظاهرة الميدان، ولم يظهر بوضوح في دير الزور، وغاب عن مناطق معيّنة في حمص كباب السباع⁽¹⁰³⁾.

وقد اتّسمت الحركات الاحتجاجيّة ببعض خصائص "سياسة الشوارع" و"الهبات" الشعبية التي تدفع الدولة عادةً للرقص على إيقاعها⁽¹⁰⁴⁾. وقد اتّبعَت السلطة إزاء هذا المتغيّر الجديد سياساتٍ مضطربةً تنوس بين الاستجابة لمطالب المتظاهرين والصدّام معهم. ولم يكن اضطراب هذه السياسات نتاج ارتباكٍ في طريقة

¹⁰¹ برّر النائبان استقالتهما، بخرق الأجهزة الأمنية التعليمات الرئاسية، وإطلاقها الرصاص على المتظاهرين في مدينة درعا- على حد وصفهما. كما طالب الحريري - في اتصال مع قناة الجزيرة القطرية - بتدخل الرئيس بشار الأسد شخصياً، لإيقاف ما أسماه بحمام الدم في سورية. دي برس: "استقالة عضوي مجلس الشعب ناصر الحريري وخليل الرفاعي"، 2011-4-23. <http://www.dp-news.com/pages/detail.aspx?articleid=81581>

¹⁰² لمشاهدة استقالة يمان المقداد اتبع الرابط التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=vSWFxFiHoPk>

¹⁰³ مناقبات حمزة مصطفى، الباحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، لصالح البحث.

¹⁰⁴ الأيوبي، تضخم الدولة، ص807.

التعاطي مع هذه الحركات فحسب، بل وعكس خلافاً داخلياً، برز العديد من مؤشراته، حول منهج هذا التعاطي بين اتجاهي الحلّ السياسي والحلّ الأمني. وتجلّى ذلك في تقديم تنازلاتٍ فوريةٍ سياسيةٍ و قطاعيةٍ للمحتجّين، بقدر ما وقعت صدامات دموية مع المحتجّين في درعا ودوما وغيرهما، بما يعكس انزلاق السلطة وبوتائر سريعة إلى أيدي الأمنيين والعسكريين.

دمجت السلطات الأمنية خلال هذه المرحلة ما بين تفكيكها للتظاهرات، وشنّ حملةٍ حربيةٍ "منهجيةٍ على شبكات التهريب في حمص والرستن ثم في تل كلخ، ممّا خلط الأوراق بين التظاهرات السلمية المطالبة بالحرية والصدامات الدامية مع المهزّبين. ولبست السلطة مواجهتها مع المهزّبين لبوس مواجهة الحركات السلفية المتطرّفة، وشكّل ذلك كبرى عمليات جهاز الأمن السوري في محاولة السيطرة على الوضع عبر استراتيجية الخلط بين الأوراق.

اتّسمت حركة الاحتجاجات خلال هذه "الجمع"، من الناحية السوسيولوجية، في كلّ من درعا ودوما وبانياس، بسمات "انتفاضة البلد" في تضامنيةٍ موحّدةٍ أخذت في كلّ من درعا ودوما شكل "انتفاضةٍ شعبيةٍ عامّةٍ، بينما اتّسمت في بقية المناطق، ولاسيّما في مدن ريف دمشق المتوسطة والصغيرة بأنها حركة "أبناء البلد" المهمّشين، والمفقرين "المذلين المهانين"، المتمردين سخطاً على أوضاعهم، غير أنّ مناطقهم كانت في هذه الفترة، لأسبابٍ مختلفةٍ ومعقّدةٍ بين منطقةٍ وأخرى، أكثر "قابليةً للاحتجاج" من غيرها.

وقد تركز هؤلاء عموماً في الأحياء الطرفية المهمّشة، التي تتميّز بارتفاع مؤشّرات فقرها البشري والماديّ، والذين وقعت عليهم تكلفة سياسات التحرير الاقتصادي وقّعا أليماً ولثيماً، بسبب فقدان الكثيرين منهم أعمالهم في الورشات والمعامل التي أفلست وأغلقت جزئياً أو كلياً في العديد من المحافظات السورية ولاسيّما في ريف دمشق، بفعل انعكاس آثار الأزمة العالمية، ورفع أسعار المحروقات، ومنافسة المستوردات لإنتاج هذه المنشآت .. إلخ. و فقد تسببت هذه المنافسة في دمار ألوف المنشآت الصغيرة والمتناهية في الصغر غير المنظّمة، والتي كانت تشكّل مصدر دخل لعشرات الألوف من العائلات. ففي بلدة سقبا الصغيرة، والتي لن تهدأ حركة الاحتجاجات فيها، تعرّض ما لا يقلّ عن خمسة آلاف عائلةٍ للخراب بسبب منافسة المفروشات التركية والماليزية والصينية.. إلخ، كما تضرّرت آلاف العائلات الأخرى في حمص وتل كلخ من عملية اعتقال معيّلهم بسبب نشاطاتهم الاقتصادية غير المشروعة "التهريب". وتضافر ذلك مع سياسة الدولة ضدّ المنقّبات، بفصلهن من سلك التعليم، وإهانة مشاعرهنّ من خلال ضخّ مواد إعلاميةٍ

مهينة لهن، وردة فعل ريف دمشق، الذي تتميز نسائه عموماً بارتفاع وتيرة النقاب لديهن. يضاف إلى ذلك، ما خلفته عملية اقتحام الجامع العمري من جروح عميقة في أرواحهم وكرامتهم، واستنفار ديناميات الوعي الديني الذي بات في العقود الأخيرة خاضعاً - إلى حد كبير - لمؤثرات الضخ السلفي المتشدّد، مع بروز دور الدين بوصفه "تهيدة المظلوم المقموع، وقلب عالم بلا قلب" بلغة ماركس. ولهذا كانت شدة الشراسة مترافقةً مع شدة الفقر والحرمان والبؤس وإهانة الذاتيّة والضغط السلطوي.

وشهدت سيرورة الحركة الاحتجاجية خلال هذه الفترة وفي منتصف نيسان/أبريل 2011، محاولة الأطراف تثوير المركز المتمثل في مدينة دمشق، بالزحف إليها، وتحويل "ساحة العباسيين" إلى "ميدان تحرير". وهو ما يشير إلى تغيير جوهري في تعريف السلطة البعثية للريف، التي تفسخ عقدها الاجتماعي - السياسي من سلطة الفلاحين إلى سلطة الشرائح المدينية العليا، وفي قلبها شريحة "المئة الكبار" و"ذئابهم الشابّة". وقد ترجمت الحركات الاحتجاجية هذه النقمة، على طريقتها، بهجومها الكبير على منشآت شركة "سيرياتيل" التي كانت تجسّم في وعي المقهورين التمثيل بين المال والسلطة. وخلال شهر ونصف من المواجهة كانت المدن المليونيّة الكبرى، ونخصّ مدينتي دمشق وحلب اللتين تشكلان (كمدنيتين وليس كمحافظتين) أكثر من 38% من إجمالي سكان المدن السورية، بينما تشكلان على مستوى المحافظة 31% من إجمالي سكّان سورية. والمقصود بسكّان سورية المقيمون فيها. وقد اقتصر التحرك في المدينتين المليونيتين خلال هذه الفترة على بؤر محدودة جداً بادر إليها شبّان الفئات الوسطى في كلّ من مدينتي حلب ودمشق.

اتّسمت الحركات الاحتجاجية من ناحية الخصائص البنيوية بـ"التوسّع" (التوسع المجالي النسبي خارج مدينتي درعا ودوما) في بعض المدن الصغيرة والمتوسطة، وفي أطراف مدينة حمص الكبيرة (ما دون المليون نسمة)، وفي أطراف "دمشق الكبرى"، وامتدادها (الاحتجاجات) لأول مرّة إلى دير الزور، لكن يقابله انحسار كامل في طرطوس ثم انحسار لجمعتين في اللاذقية⁽¹⁰⁵⁾؛ و"الطرفيّة" (بعض المدن الصغيرة والمتوسطة وأطراف دمشق الكبرى، والأحياء الطرفية العشوائية في حمص)؛ و"الشدة" (الصدام الدامي مع قوّات الأمن، ومع ما يطلق عليه أمنياً اسم "الطرف الثالث أو المندس")؛ و"الكثافة" (التظاهر بحيث ارتفع

¹⁰⁵ في 15 نيسان/أبريل حين خرجت اللاذقية في تظاهراتين؛ كان الوضع هادئاً، ولم يتخلل ذلك سوى إطلاق عيارات نارية محدودة، لكنها في يوم الجمعة (22 نيسان/أبريل 2011) كانت هادئة وشبه خالية من الناس. (تعليق فاتح جاموس، أحد منظمي التظاهرات، أخبار الجزيرة، الساعة الثامنة من مساء 15 نيسان/أبريل 2011). في يوم الجمعة العظيمة (22 نيسان/أبريل 2011)، كانت المدينة خالية من التظاهرات والتجمعات - تقريباً - باستثناء تجمعاتٍ؛ يحتمل أنها لأنصار السلطة، أو قوى الأمن السرية. لكن الجو كان متوتراً وحذراً. (أكرم نعيسة، تعليق في نشرة أخبار الجزيرة، الساعة الثانية من يوم الجمعة 22 نيسان/أبريل 2011).

حجم المتظاهرين من 150 ألف متظاهر تقريباً في يوم "جمعة الشهداء" إلى نحو 400 ألف متظاهر في " الجمعة العظيمة"؛ و " التوتر السياسي والطائفي" (التوتر السياسي بتجاوز القضايا المطالبية" الصرفة إلى القضايا السياسية الجوهرية، والتحول من شعار " الحرية" إلى شعار " إسقاط النظام"، والتوتر الطائفي الحاد في المدن المركبة والمتداخلة طائفيًا ومذهبيًا في اللاذقية وجبلة وبنانياس وحمص، والذي يشكّل على مستوى الوعي توتراً مقلوباً عن التوتر الاجتماعي-السياسي)؛ و "التضامنية" (المناطقية والعشائرية في مدن صغيرة ومتوسطة، تتسم بقوة تشابكاتها القرابية والعشائرية والعائلية التقليدية، وتأخذ في شكلها الأعلى صورة " الفرعة"، أو "هبات أبناء البلد")؛ و "السلمية" (مثلت تظاهرات سلمية بشكل تام، ماعدا بواذر تسلّح دفاعي بدائي في درعا" تنظيم ثورة درعا"، والصدمات مع بعض المهزّيين من حملة الأسلحة)، والتحوّل من "العفوية" إلى أول أشكال التنظيم (شهدت هذه المرحلة مؤشّرات تحوّل الطبيعة "العفوية" لحركة الاحتجاجات، من الاصطفاف - وفق ديناميات التضامن التقليدي - إلى طبيعة شبه منظمة، تمثلت في تشكيل نوع من لجان شعبية، في كلّ من درعا ودوما اللتين كانتا مركز الحركات الاحتجاجية برمتها، والأكثر كثافةً بشرية وتضحية، والأكبر من حيث عدد الضحايا والمعتقلين).